المَكتبة العَامَّة وثقَافَة المجْتَمع

تلعب المكتبة العامة دوراً هاماً لما تقوم به من دور فعال في تغذية حياة الأمم والشعوب، حيث تتصل حياتها الثقافية والعلمية والعملية اتصالاً وثيقاً بالكتب وبالمكتبات.

والاهتمام الكبير الذي توليه الدول لإنشاء المدارس، والجامعات، والمعاهد، والمؤسسات التربوية المختلفة، باعتبارها الحقل الذي ينتج القوى البشرية الواعية القادرة على الخلق والإبداع، لهو أحد المظاهر الدالة على هذا الاهتمام.

ومما لا شك فيه أن انتشار المدارس وانتشار التعليم، كان من العوامل الجوهرية في تقدم تلك الأمم، ومكتباتها دليل على رقيها ومجدها، إن التطور الذي شهده العالم خلال العصر الحديث في شتى ميادين الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والتعليمية، والثورة العلمية والصناعية التي تطمح الأمم إلى تحقيقها من أجل مواكبة التقدم العلمي والتكنولوجي في المجتمع المعاصر، هذا التطور لا بد أن نزوده بالأدوات والوسائل التي تعين على تثقيف هذه الشعوب، والارتقاء بمستواهم الفكري والاجتماعي، سواء أثناء دراستهم، أو بعد التخرج والخروج إلى الحياة العملية من خلال أعمالهم، أو في حقل تخصصهم، أو في مؤسساتهم، أو في أي موقع من مواقع العمل.

وقد أجمع الرأي على أن المكتبات العامة هي أهم أداة من الأدوات التي يمكن الاستعانة بها في نشر الوعي الثقافي بين جماهير الشعب، وذلك عن طريق ما تقتنيه من كتب ومجلات ومراجع وغيرها من المواد المكتبية التي تساعد

وتعين على كسب المعرفة والعلم والخبرة، وتمكن الباحثين والدارسين والطلاب من الوصول دوماً إلى مصادر الفكر والثقافة بأنواعها، كما تعينهم على تدارك الأحداث، وما تجري عليه أمور العالم الذي يحيط بهم، مما يؤدي إلى تقدم الحياة العقلية، وخصبها بين الشعوب بعضها البعض.

إن هناك هدفاً سامياً للمكتبة العامة، هو الارتقاء بمستوى الأفراد الفكري والثقافي من خلال توفير الكتب وغيرها من المواد المكتبية، وتنظيم استعمال واستخدام هذه المواد تبعاً لاتجاهات الأفراد وقدرتهم، ولهذا فلم تعد المكتبات العامة تعتمد على الكتاب كوسيلة وحيدة للمعرفة، بل أخذت تبحث عن وسائل أخرى متعددة إلى جانب الكتاب، منها الأفلام، والأطالس والسلايدات، والفيديو، والتلفزيون، والموسوعات، والدوريات، ودوائر المعارف العامة، والمتخصصة، وغيرها من الوسائل الأخرى التي تعالج جانبين هامين هما، الجانب الثقافي: والجانب التعليمي.

من هنا كانت أهمية المكتبات العامة التي تنشئها الدولة، وتحفظ فيها نتاج المعرفة الإنسانية، وخبراتها لتكون في متناول جميع المواطنين، للاستفادة والاستزادة منها، بغض النظر عن أي اعتبار، وبدون مقابل.

هذا وقد أصبحت الخدمات الثقافية والمكتبية التي تقدم للجماهير ضرورة ملحّة لأي مجتمع من المجتمعات، وكما تقوم الدولة بتوفير الغذاء للمواطنين وتوفير الخدمات الأخرى، يجب أن توفر الخدمات الثقافية والفكرية، وأن تتيحها أمام كل المواطنين دون تفرقة أو تمييز.

والمكتبة العامة، من المؤسسات الاجتماعية الثقافية في المجتمع، ولها وظيفة هامة وأساسية، إذ إنها تعمل على انسجام الفرد في الإطار الثقافي العام، انسجاماً يؤدي إلى تكيفه، وإلى حسن قيامه بنشاطاته المختلفة كفرد

في مجتمع معين، وتعتبر المكتبة العامة من المؤسسات الخطيرة التي أنشأتها الدولة في المجتمع لتتولى تربية وتعليم وتثقيف الشباب، والأطفال، وإثراء فكر الباحثين، وهي المؤسسة القيّمة على الحضارة الإنسانية التي تقوم عليها المكتبة العامة، فهي التنمية الثقافية بمعناها العام.

عوامل ظهور المكتبات العامة:

١- غزارة التراث الثقافي: نتيجة لتغير الإنسان، وازدياد وسائل المعرفة من كتب وغيرها من المواد المكتبية، أصبح من الصعب عليه أن ينقل ثقافته الغزيرة من جيل إلى جيل، الأمر الذي أدى به إلى أن يفكر في إنشاء مؤسسة تؤدي مهمة نقل التراث، فوجدت المكتبة العامة لتكون حلقة الوصول في نقل التراث الثقافي إلى المجتمع الذي توجد فيه.

٢- تنوع التراث الثقافي: فكلما تقدم الإنسان في طريق الحضارة اتسعت بيئته، وكثرت مشكلاتها، وكثر نتاج الفكر، وتشعبت مجالاته، وصعب نقل التراث إلى الجيل الجديد، وبرزت ضرورة المكتبة العامة لنقل هذا التراث وتدريسه.

وبالإضافة إلى المهام العديدة التي تقوم بها المكتبة العامة في المجتمع، فهناك العديد من المهام والوظائف الأخرى التي تقوم بها، وأهمها ما يلي:

١- نقل تراث الأجيال السابقة إلى الأجيال الحاضرة، فالأجيال السابقة أثرت التراث الحضاري والثقافي، وقامت بتجميع تراثها ومخلفاتها الفكرية والثقافية والحضارية المتعددة في سجلات مكتوبة، وكل مجتمع بشري يريد أن يحتفظ بصلة لماضيه وتاريخه يحتم عليه أن ينقل تراث الماضي إلى الأجيال الناشئة، ونحن نعلم بأن الحضارة العربية الإسلامية كانت غزيرة بتراثها الفكري والحضاري، واتجهت إلى إنشاء مثل هذه المكتبات التي تقوم بنقل

التراث الثقافي والحضاري إلى الأجيال القادمة.

٢ـ المكتبات العامة، تقوم بالاحتفاظ بالتراث الثقافي للأجيال السابقة، فبالإضافة إلى احتفاظها بالتراث الثقافي القديم، تقوم المكتبة العامة بإضافة كل جديد، وفي نفس الوقت تسجل وترصد كل ما تبتكره الأجيال الحاضرة من معارف وعلوم، وتضيفه إلى تراث الأمة، وبذلك تقوم بوصل حاضرها بماضيها.

٣ـ تقوم المكتبة العامة بتبسيط التراث الثقافي للمجتمع، وتصنفه، وتعده، وترتبه بشكل متدرج يناسب المستويات والفئات الفكرية، ومدى استعدادهم لتقبل هذا التراث.

٤ـ عرض المشكلات الاجتماعية والثقافية، وإتاحة الفرصة إلى فئات المجتمع المختلفة من خلال الندوات والمحاضرات التي تقوم بها المكتبة العامة، حتى يستطيع هؤلاء أن يعيشوا هذه المشكلات، وأن يشعروا في إمكانيات تحويلها، والمساهمة في حل هذه المشكلات التي تغير المجتمع وتطوره.

٥ـ إتاحة الفرصة لكل فرد من أفراد المجتمع، سواء أكان تلميذاً أم مدرساً أم باحثاً أم عالماً، أن يتحرر من قيود الجماعة التي نشأ فيها، ويتصل ببيئة أوسع منها اتصالاً ثقافياً وخلقيا واجتماعيا، وإيجاد النقاش بين فئات المجتمع.

وبالإضافة إلى هذه الوظائف، تقوم المكتبة العامة بتصنيف المواد وتتبعها وتدريجها من السهل إلى الصعب، ومن المعلوم إلى المجهول، ومن الحسن إلى المجرد، كما أنها تحاول أن تنقي ما يعلق بالتلميذ من الفساد والدرن في المجتمع، وتخلق له جواً مشبعاً بالفضيلة والتقوى، وهذه من ضمن مهام المكتبة العامة التربوية، وتضيف أيضاً إلى الطالب اختبارات الآخرين، فتوسع أفقه في الزمان والمكان، وتُطلعَه على ما تيسر لها من التراث الثقافي،

وما يجري حوله في العالم.

وتعمل أيضاً المكتبة العامة على توحيد ميول الفئات المختلفة في المجتمع في بوتقة ثقافية واحدة، وتفسح لهم المجال في التواصل والتشابه الثقافي فيما بينهم.

وتعمل المكتبة العامة أيضاً على أن تعوّد فئات المجتمع المختلفة وخاصة الأطفال منهم على التمتع بأوقات فراغهم، والشعور بالسعادة باستمرار، وجعل الاستجمام جزءاً من الحياة اليومية، مع التفرقة بين الاستجمام أو اللعب المفيد واللعب غير المفيد، وعدم ترك هؤلاء الأطفال يعملون ما يشاؤون دون توجيه وتربية.

إن المجتمع ينظر إلى المكتبة العامة باعتبارها مؤسسة تثقيفية هامة، لها وظيفتها المبدئية في دعم الثقافة التي تحتويها، بالاضافة إلى المعرفة المتراكمة في كل حقل من حقول المعرفة البشرية من القيم والمعتقدات والمفاهيم والمعايير التي توارثها جيل عن جيل، مع بعض التعديلات المتكررة عبر تاريخ المجتمع.

إن نقل وتراكم الثقافة من جيل إلى جيل، كانت هي السمة المميزة للإنسان منذ بداية المجتمع الإنساني، ولكن دور المكتبة العامة في هذا المجتمع أصبح هاماً وبارزاً في نقل هذه الثقافة.

وبما أن ثقافة المجتمع قد نمت وتعقدت، فإن من الضرورة بمكان تطوير وسائل خاصة للإشراف على هذه الثقافة، فكانت المكتبة العامة التي كان لها دور فعال في تغيير التركيبة الاجتماعية للمجتمع، وعملت على تفاعل هذا المجتمع بجميع فئاته مع هذه الثقافات، حتى ينال منها في تطوير هذا المجتمع.

إن المكتبات العامة تعمل غالباً كدعامة للهوية الثقافية والفكرية والاجتماعية للمجموعات الفرعية ضمن إطار المجتمع الواحد، وبما أننا قد صورنا المكتبة العامة على أنها أحد الوسائل الهامة في نقل الثقافة إلى المجتمع، فإن المجموعات المتنوعة والفئات العديدة ضمن المجتمع الواحد يمكن أن تحاول استعمال المكتبة العامة في صقل عادات ثقافية وقيم خاصة لكي تدعم هويتها الثقافية الفرعية، والهدف هو حشد الجهود المبذولة لإصلاح المجتمع.

وأخيراً، فإذا نظرنا إلى المهام والوظائف والأهداف التي تقوم بها المكتبات العامة في المجتمع، يتضح لنا أن دورها لا يقتصر فقط على إمداد المجتمع بالكتب والمواد الأخرى، بل يمتد إلى نقل التراث الثقافي إلى فئات المجتمع دون مقابل، ولكل الناس، بغض النظر عن العمر، أو الهوية، أو الجنس، أو اللون، فهي تعمل من منطلق اسمها الحقيقي «العامة» أي: التي تخاطب عامة المجتمع.